مركز البيان للدراسات والتخطيط
Al-Bayan Center for Planning and Studies

اركعوا وتضوروا جوعاً:
الشعب السوري يتضور جوعاً في ظل المراقبة المكثفة للشرطة السرية

إليزابيث تسوركوف – قصي جوخدار

ترجمة وتحرير مركز البيان للدراسات والتخطيط

عن المركز

مركزُ البيان للدراسات والتخطيط مركز مستقلٌّ، غيرُ ربحيّ، مقرّه الرئيس في بغداد، مهمته الرئيسة -فضلاً عن قضايا أخرى- تقديم وجهة نظر ذات مصداقية حول قضايا السياسات العامة والخارجية التي تخصّ العراق بنحو خاصٍ ومنطقة الشرق الأوسط بنحو عام. ويسعى المركز إلى إجراء تحليل مستقلّ، وإيجاد حلول عمليّة جليّة لقضايا معقدة تهمّ الحقليْن السياسي والأكاديمي.

ملاحظة:

الآراء الواردة في المقال لا تعبر بالضرورة عن اتجاهات يتبناها المركز، وانما تعبر عن رأي كتابُها.

حقوق النشر محفوظة © 2021

www.bayancenter.org

info@bayancenter.org

Since 2014

اركعوا وتضوروا جوعاً: الشعب السوري يتضور جوعاً في ظل المراقبة المكثفة للشرطة السرية

إليزابيث تسوركوف * - قصي جوخدار **

لقد قادت أزمة الخبز السوريين الذين أيدوا حكومة الأسد (أو على الأقل الذين لم يعارضوها) إلى أن يفقدوا ثقتهم بالدولة بوصفها مصدراً للاستقرار. في المقابل، لجأت حكومة دمشق إلى استخدام العنف والقمع كوسيلة لاحتواء العواقب الوخيمة.

على مدار العقد الماضي الذي انقضى على الأزمة السورية، تمتع نظام الأسد بالتأييد –أو على الأقل بالمقبولية– من شرائح معينة من المجتمع، تلك الشرائح التي كان الاستقرار والإمداد الثابت للخدمات على رأس أولوياتها. بيد أن البلد يعاني من انهيار اقتصادي، انهيارٌ ناجم على الأغلب عن سنوات الحرب والانهيار الاقتصادي الذي تعاني منه الجارة لبنان؛ وهذا ما يعيق قدرة الدولة السورية على توفير أبسط الخدمات الأساسية للمواطنين. ومع الارتفاع الناري لأسعار المواد الغذائية، لم تعد الدولة قادرة على توفير حتى الخبز المدعوم حكومياً، الخبز الذي أصبح السوريون يعتمدون عليه بشكل متزايد طوال الحرب، إذ لم يعودوا قادرين على سد رمقهم، فهم يتضورن جوعاً أكثر فأكثر. بات نظام بشار الأسد الآن وأكثر من أي وقت مضى –منذ تسنمه لزمام السلطة وراثة في عام 2000– يعتمد على القمع والإرهاب لإسكات السكان الذين ينخرهم الفقر والعوز، بينما يستفيد المقربون من النظام وأولئك المرتبطون بالشرطة السرية من أزمة شح المؤن المدقعة.

حينما اقترب غياث من مخبز الدولة في بلديته بريف دمشق، كانت الساعة تشير إلى السادسة والنصف صباحاً، ولكن الطابور على المخبز كان طويل قبل وصوله. يأخذ مكانه في الطابور وينتظر أكثر من ساعتين لشراء الخبز المدعوم حكومياً، ومن ثم يمضي لعمله في المجلس المحلي. كان هذا روتينه اليومي من شهور. يصف غياث مشاعره في البرد بينما ينتظر في الطابور: ”يضطرم صراع في داخلي. أفكر بشأن المعيشة على هذا الراتب الصغير“. يقول: ”أحياناً تنهمر

* زميلة غير مقيمة في معهد نيولاينز ، وزميلة أبحاث في منتدى التفكير الإقليمي، وهي طالبة دكتوراه في قسم العلوم السياسية– جامعة برينستون.

**باحث سوري في الشأن السياسي، مقيم في تركيا.

الدموع دون أن أعي ذلك. أشعر بالعجز، وبدأت بالتفكير، يتوجب عليّ أن أفعل شيئاً ما. عليّ أن أتصرف. مللتُ هذا الإذلال الأبدي". غياث مواطنٌ من بين ملايين المواطنين السوريين الذين يصطفون في الطوابير يومياً في المناطق الخاضعة لسيطرة النظام للحصول على الخبز والسكر والرز والديزل وغاز الطبخ، والذين يعانون من شحة في الحاجات الأساسية وارتفاع حاد في أسعار المواد الغذائية.

الشكل (1): **متوسط تكلفة السلة الغذائية الوطنية بالليرة السورية**

تشمل السلع الغذائية الأساسية في سلة الغذاء المتيسرة في سوريا ما يلي: 37 كغم من دقيق الخبز، 19 كغم من الرز، 19 كغم من العدس، 5 كغم من السكر، و7 لتر من الزيت النباتي. توفر هذه المواد 2,030 سعرة حرارية يومياً لعائلة مكونة من 5 أفراد في الشهر.

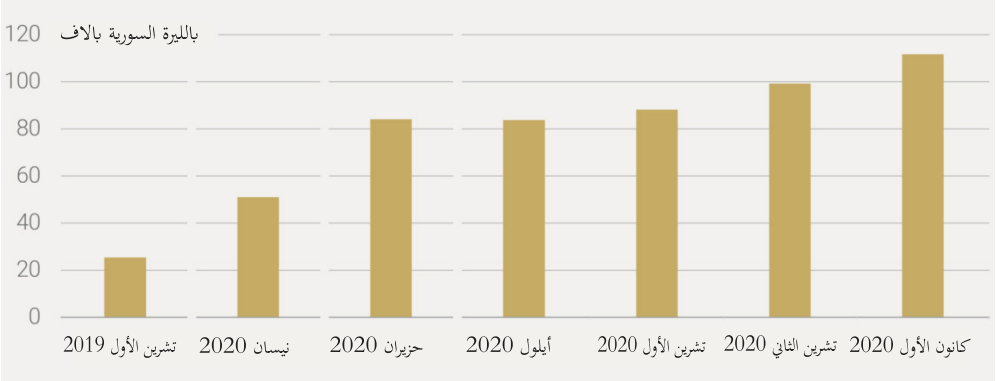

المصدر: برنامج الغذاء العالمي، مراقبة وتحليل العوز الغذائي. معهد نيولاينز للدراسات السياسية والاستراتيجية 2021.

ومع تفاقم أزمة الجوع، يواصل المقربون من النظام التباهي بثرواتهم. وعلى الرغم من ذلك، بقي ملايين السوريين المقيمين تحت سيطرة النظام هادئين. وعلى الرغم من توقعات البعض في سوريا، إلا أن السوريين يتجرعون جوعهم ويتحملون ما لا طاقة لهم به. يشرح غياث السبب: "في اللحظة التي أفكر فيها بالتمرد، تنبثق صورة قيصر أمامي"، في إشارة إلى عشرات الآلاف من الصور المهربة من سوريا على يد أحد المنشقين معروف باسم قيصر، وثق أكثر من 11000

قصة لسجين سياسين، فقدوا حياتهم تحت وطأة التعذيب أو المرض أو التجويع في سجون النظام. يقول غياث: ”يبدو الأمر وكأن كل صورة رأيتها محفورة في ذاكرتي، لكم بدت أجسادهم واهنة، وأماكن جروحهم. اتصور ما الذي سيحدث لي في حالة صرخت ولعنت النظام وثرت عليه، ربما سيعتقلونني، حتى أنهم قد يغتصبون زوجتي ويعذبونها أمامي“. هذا التصور يضع حد لأي أفكار تدعو إلى التمرد. بدلاً عن التمرد، ولتخفيف الألم، يضحك أحياناً ومن ثم يبكي، وبعدها يتحدث مع نفسه بهدوء حتى لا يسمع الآخرون ما يدور في ذهنه. إنه ليس وحده من يمر بهذا الوضع، فغياث يقول: ”الناس ليسوا مجانين، ومع ذلك يتحدثون مع أنفسهم في الطابور. إنهم يفضلون التكلم مع أنفسهم على المجاهرة بما يدور في أذهانهم حتى لا ينتهي بهم الأمر معذبين في سجون الاعتقال“.

أزمة خبز غير مسبوقة

لقد وجهت أزمة الشح في الأغذية ضربة قاسية للشعب السوري؛ لأن الخبز هو المصدر الأرخص للسعرات الحرارية، وهو ما يعتمد عليه السوريون بشكل متزايد بما أن وضعهم الاقتصادي قد تدهور أبان فترة الحرب. كان الخبز عنصراً أساسياً في النظام الغذائي السوري، ولكن مع ارتفاع أسعار اللحوم والبيض والخضروات وحتى الحبوب رخيصة الثمن مثل الرز والبرغل، صار السوريون أمام ضرورة الاعتماد على الخبز بشكل أكبر لتفادي خطر الجوع. خلال العام الماضي، وبحسب بيانات برنامج الغذاء العالمي التابع للأمم المتحدة، ارتفعت أسعار المواد الغذائية الأساسية بنسبة 247% في سوريا، نتيجةٍ للأزمة الاقتصادية في لبنان المجاورة وللانخفاض السريع في قيمة العملة السورية (وهي عملة تتداول حالياً عند 3300 ليرة للدولار الواحد في السوق السوداء). في عام 2019 –وقبل ارتفاع اسعار السلع في عامي 2020 و2021– قدرت الأمم المتحدة أن 83% من السوريين كانوا يعيشون تحت خط الفقر. وفقاً إلى آخر تقييم لبرنامج الغذاء العالمي التابع للأمم المتحدة، والذي غطى الفترة حتى حزيران 2020، قبل الارتفاع الإضافي للأسعار الإضافي وتجدد أزمة شحة الخبز، كان نصف السكان تقريباً يعانون من انعدام الأمن الغذائي.

الشكل (2): قيمة صرف الليرة السورية في السوق السوداء مقابل الدولار

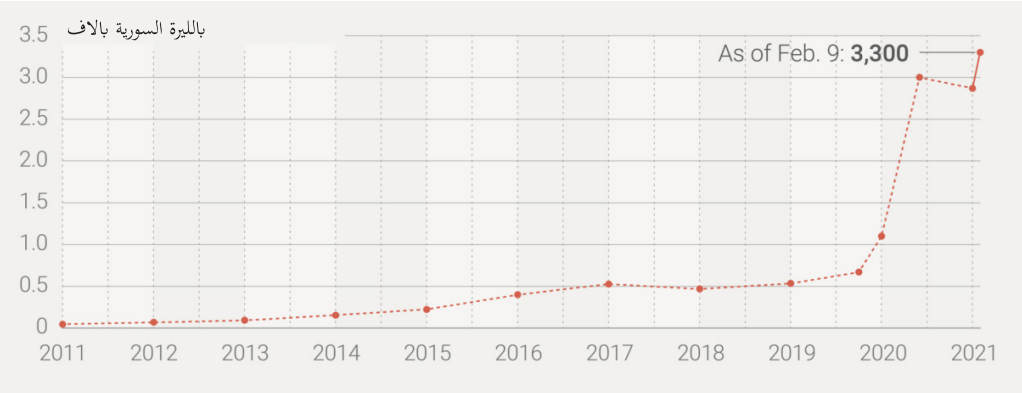

المصادر: الليرة السورية اليوم والجامعة الأوربية، معهد نيولاينز للدراسات السياسية والاستراتيجية.

بدأت أزمة الخبز في سوريا في أيلول- وبشكل يثير القلق- قرابة نهاية موسم الحصاد، مما يشير إلى شحة بالغة الخطورة في وقتٍ من العام من المفترض أن يشهد وفرة في القمح. وعلى العكس، بدأت أزمة الخبز السابقة، التي كانت الأولى من نوعها في المناطق الخاضعة لسيطرة النظام، حيث ضربت هذه المناطق في آذار 2020، قبيل وقت قصير من بدء موسم الحصاد في حزيران، في وقتٍ كان من المتوقع أن تستنزف فيه مخزونات القمح نسبياً. إن الخبز المدعوم حكومياً -وبكل بساطة- غير متوفر بكميات كافية في جميع أنحاء البلاد. يختلف توفر الخبز من منطقة غلى أخرى، وتشتد الأزمة بشكل خاص في دمشق وريفها وفي درعا في الجنوب، من المرجح بسبب كثرة السكان في هذه المناطق. في هذه المناطق، تفتح الكثير من المخابز لأيام قليلة في الأسبوع؛ بسبب شحة القمح.

دفعت هذه الشحة المبكرة الحكومة السورية إلى إعلان تطبيق برنامج لتوزيع الحصص لبيع الخبز. سبق أن تم العمل بنظام الحصص بشكل غير منتظم، ولكن شدد على العمل بالحصص بعد انفجار الأزمة الحالية. وتبعاً للنظام الحالي، فإن متوسط حصة الفرد (والذي يختلف قليلاً حسب عدد أفراد العائلة) هو ثلاثة أقراص ونصف من الرغيف العربي، ويزن كل قرص 650 غراماً، أي ما يعادل حوالي 960 سعرة حرارية. وعلى الرغم من ذلك، فإن الدولة السورية غير قادرة على توفير هذه الحصة المقلصة. تقول مريم: ”لم أتمكن من الحصول على الخبز منذ حوالي أسبوع“، ومريم

هي طالبة نازحة تعيش في جرمانا في ضواحي دمشق. تقول: ”انتظر في الطابور أربع أو خمس ساعات وأعود بخفي حنين“. عندما يتعين على مريم الذهاب إلى محاضراتها، فإنها تجند والدتها المصابة بالسرطان لتقف في الطابور بدلاً عنها، تقول: ”وعندما أنهي المحاضرات، أعود لأحل محلها في الطابور. كل يوم تحصل مشاجرات في الطابور بسبب الازدحام“.

شكل (3): أسعار الغذاء السوري، ونصيبه من الراتب الشهري بتاريخ في 24 كانون الثاني 2021

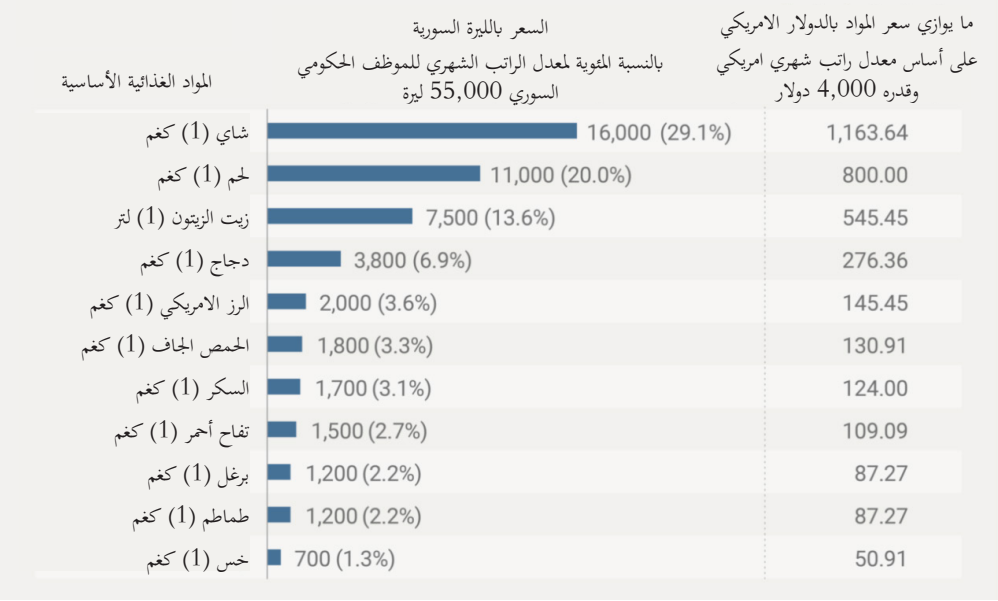

أسباب أزمة الخبز

شح الخبز المدعوم حكومياً ناجمة عن تظافر عدة عوامل، أهمها أن معظم القمح يُزرع في مناطق غير خاضعة لسيطرة النظام. أكثر من 70% من المساحات المزروعة بالقمح عام 2020 كانت تحت سيطرة قوات سوريا الديمقراطية (قسد) في شمال شرق سوريا. وإن المناطق الواقعة تحت سيطرة المتمردين والأتراك تضم هي الأخرى حقول للقمح؛ وبالتالي لم يتبقَ للنظام سوى حوالي 20% من محصول البلاد.علاوة على ذلك، عرضت قوات سوريا الديمقراطية (قسد) وحكومة الإنقاذ الوطني –المرتبطة بهيئة تحرير الشام الإسلامية المتمردة التي تحكم إدلب– وشركات تركية، عرضت أسعاراً أعلى للمزارعين لبيع قمحهم، مما اثنى المزارعين عن البيع لنظام الأسد.

حتى القمح القليل الذي تستطيع الحكومة السورية شراءه غالباً ما يُسرب. إن سعري الخبز والدقيق –وبسبب شحتهما– يعادل في السوق السوداء من 5 إلى 10 أضعاف السعر المدعوم حكومياً، الأمر الذي يشجع موظفي الدولة– الذين تقل رواتب معظمهم الآن عن 20 دولار في الشهر على سرقة القمح والخبز وبيعه في السوق السوداء. قال ليث، المصور المقيم في دمشق، إن ''مخصصات القمح لكل مخبز غالباً ما تُباع (بواسطة الأفراد) المتعاونين مع أعضاء وزارة التموين'' –الاسم الشائع والسابق لوزارة التجارة الداخلية وحماية المستهلك– ''والمتعاونين مع عناصر المخابرات المكلفين بمراقبة المخابز''.

ويسهل الفساد بيع القمح الذي يزرع في مناطق خاضعة لسيطرة الحكومة إلى جهات فاعلة غير مؤسسة الدولة لجارة الحبوب التي تزود المخابز الحكومية. إن السعر الذي يعرضه النظام هو 400 ألف ليرة سورية للطن المتري (حوالي 150 دولاراً خلال فترة الحصاد في آب)، وهو سعر أقل من سعر السوق الدولي (ما يقدر بـ 200 دولار للطن المتري في أثناء الحصاد). من الناحية الرسمية، يبدو أن المزارعين ملزمون ببيع حبوبهم للدولة إذا اشتروا البذور والأسمدة منها، ''ولكن لجنة تقييم حجم الإنتاج تأخذ رشاوى) كما يقول باسم، وهو مزارع يزرع القمح في السلمية بريف حماة. هكذا ''تمكن المزارعون من التملص وبيع نسبة 70% من الحبوب في السوق الحرة وبيع ما يتبقى للدولة''.

يُفاقم تهريب القمح السوري المنتج محلياً أزمة الشحة في البلاد؛ مما يؤدي إلى ارتفاع أسعار المواد الغذائية. معظم القمح المزروع في سوريا هو قمح صلب مناسب لصنع المعكرونة ولكنه خشن جداً فلا يمكن إنتاج الخبز منه. صرّحت عدة مصادر، بما في ذلك ضابط في الشرطة العسكرية في الجيش الوطني السوري وتاجرٌ سوري يعمل في جنوب تركيا فضلاً عن باسم، أنه يتم تهريب الكثير من هذه الحبوب إلى تركيا عبر تجّار يتمتعون بصلاتٍ في النظام السوري. قال ضابط الجيش الوطني السوري إنه شارك شخصياً في إيقاف شاحنات الحبوب، لا لشيء غير البحث عن متفجرات مخبأة قبل السماح لها بالمضي قدماً. وعلى وفق رجل الأعمال السوري، تُباع الحبوب بعد ذلك للتجار الأتراك الذين يشترون الدقيق المطحون بحوالي 1700 ليرة تركية للطن المتري (230 دولاراً) والقمح الصلب مقابل 1800 ليرة تركية للطن المتري (244 دولاراً)، ثم يُباع القمح الصلب إلى مصانع إنتاج المعكرونة في تركيا.

منذ بداية الانتفاضة، اضطر النظام إلى الاعتماد على الواردات لتعويض شحة القمح، لكن مثل هذه المشتريات تتطلب العملة الأجنبية، وهو ما يفتقر إليه النظام تدريجياً. في العام 2019، كان النظام يحاول إجراء صفقات مقايضة غريبة من نوعها للقمح الصلب مقابل القمح المطحون الطري اللازم لإنتاج الخبز، مما يشير إلى أزمة في العملات الأجنبية. لقد تفاقمت أزمة شح القمح بسبب الأزمة المصرفية في شهر تشرين الأول من العام 2019 في لبنان، والتي منعت الوصول إلى عشرات المليارات من الدولارات المودعة في حسابات شركات وأفراد سوريين ولبنانيين. استخدم النظام بعض هذه الشركات لشراء القمح من خارج البلاد، وهي الآن تكافح للحصول على مالها. ضرَّ الارتفاع العالمي في أسعار القمح بسوريا: ستُ صفقات كانت قد أُبرمت بنجاحٍ مع موردين روس فشلت في شهر كانون الأول من العام 2020 بعد أن تحولت إلى صفقات غير مربحة بالنسبة للبائعين. فقد تبرعت روسيا بـ100 ألف طن متري من القمح لسوريا في عام 2020، بيد أنها لم تقدم أي تعهدات جديدة منذ ذلك الحين.

ويساعد نقص الوقود في سوريا، والذي تفاقم؛ بسبب مشكلات النظام المالية وتشديد العقوبات الأمريكية على واردات الطاقة الإيرانية في العام 2018، في نقص الخبز من خلال تعطيل عمل المخابز الحكومية. يقول حارث –وهو أحد قادة الانتفاضة السابقين الذي أشرف على استسلام بلدته للنظام عام 2018– إن ”المخبز يعمل على الطاقة الكهربائية، وعندما ينقطع التيار الكهربائي يتم نقل القمح من مخبز إلى آخر، فتصبح فرصة سرقته سهلة. تستخدم بعض المخابز مولدات كهربائية، لكنها تحتاج إلى الديزل، ولا يوجد ديزل في السوق“.

شكل (4): أسعار الوقود السوري بتاريخ 24 كانون الثاني 2021

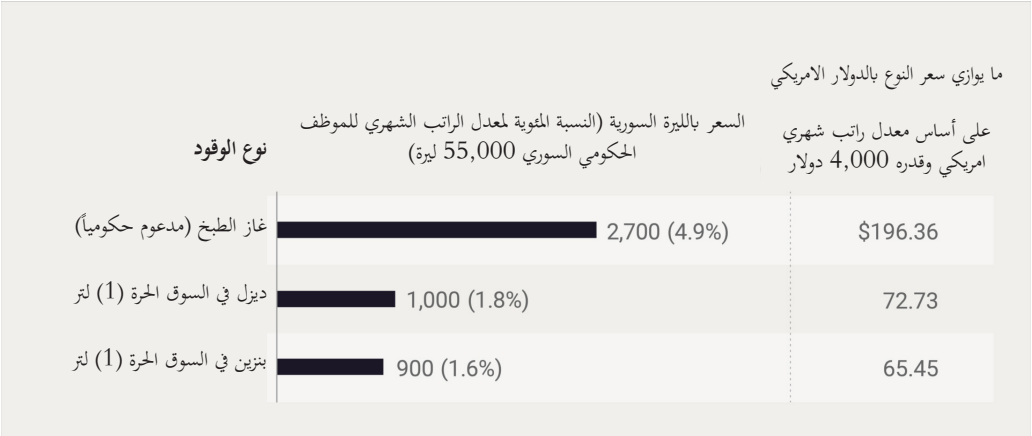

ضمور الدولة

أمام خزائن الدولة الخاوية، مع الافتقار إلى القدرة على وقف التضخم المتصاعد، يكافح النظام بشكل متزايد لتوفير ما تحتاجه شرائح المجتمع التي تعتبر موالية. تعاني البلدات والمدن التي مات الآلاف من أبنائها في صفوف الجيش السوري وميليشيات النظام من شحة حادة في الخبز، ومثال على ذلك قمحانة وطرطوس. بدأت دائرة الموالين الذين يواصلون التمتع بمستوى معيشي لائق تتقلص، أما الاحتياجات الأساسية، بما في ذلك الكمية الكافية من الخبز، فهي لا تتوفر بشكل متزايد إلا لأولئك الذين يمتلكون صلاتٍ جيدة بالأجهزة الأمنية القسرية أو موظفي الدولة في المناصب الرئيسة. يعطينا عبد الرحمن –الذي يعمل في هيئة المياه التابعة للدولة في مدينة حلب– مثالاً يقول فيه "يعمل جاري ضابطاً في الأمن السياسي [فرع في المخابرات]. في كل صباح، يقرع بابه موزعُ خبزٍ ويُعطيه خُبزه ويصر على عدم أخذ أي نقود".

كما في حالات شح المواد الأخرى في سوريا، يستفيد عملاء النظام من هذه الشحة، وتحديداً أعضاء المخابرات والعاملون في المخابز وموظفو مؤسسات الدولة المسؤولون عن شراء القمح ونقله. وصف حارث –مواطنٌ في ريف دمشق– كيف يُباع الخبز المدعوم المسروق من المخابز الحكومية علناً على يد مُخبري النظام، مقابل 5 إلى 12 ضعف السعر الرسمي، اعتماداً على مدى سوء الشحة. قال حارث: "إن الشخص الذي يوفر لهم الخبز هو ضابط في المخابرات الجوية"، مضيفاً "يدخل المخبز ثم يحمل أكياس الخبز إلى سيارته. وعلاوةً على ذلك، يطلب بكل وقاحةٍ من الأشخاص الذين ينتظرون في الطابور مساعدته في حمل الأكياس. لا يمكنك أن تتخيل مدى الألم والذّل في هذا المنظر".

شحة الخبز هي واحدة من جوانب الحرمان العديدة التي يُجبر السوريون على عيشها. شيئاً فشيئاً يصعب تحمل كلفة الغذاء، مصادر التدفئة باهظة الثمن في السوق السوداء وشحيحة جداً في حال اللجوء إلى نظام الدعم الحكومي، تنقطع الكهرباء في معظم ساعات اليوم فضلاً عن الماء، يحدث كل هذا وفايروس كورونا يصول ويجول في جميع أنحاء البلاد. يقول ليث –المصور الفوتوغرافي المقيم في دمشق– "أصبحت الحياة في دمشق عبارة عن سلسلة من الأزمات، وعندما تتفاقم هذه الأزمات تتحول الحياة إلى مجرد سباق للحصول على أبسط ضروريات العيش، فلا يمكن للناس التفكير في أي شيء آخر".

شيئاً فشيئاً، لم يعد السوريون الذين دعموا الأسد والصامتين الذين رضخوا لهذا النظام ينظرون إليه على أنه ضامن للاستقرار. لقد أدى عدم قدرة الدولة السورية على تلبية الحد الأدنى المتزايد من المعايير التي يُطالب بها السوريون، ناهيك عن جانب الفساد المستشري وشراسة جهاز النظام القمعي، إلى هذا التحول. الصامتون، المعروفون أيضاً بـ(الرماديين)، ليسوا أنصارا لنظام ولا معارضيه، يشعون أملاً في العودة إلى أيام ما قبل العام 2011 ويفيضون رغبةً في الاستقرار وتقديم الخدمات بشكل منتظمٍ أكثر من أي شيءٍ آخر، وقد تخلوا عن مطالب التغيير السياسي. قالت مها، موظفة حكومية متقاعدة تعيش بالقرب من القرداحة، المدينة التي تحدّرت منها عائلة الأسد، ”لم يعد هناك رماديين، فالجميع يكره النظام باستثناء مجموعة صغيرة من الناس تستفيد منه“.

يرى مؤيدو النظام المحبطون والمحايدون أن التدهور غير المسبوق في مستويات المعيشة يُعد انتهاكاً للعقد الاجتماعي غير الرسمي في سوريا، حيث يوفر النظام الخدمات الأساسية ورواتب ثابتة للقطاع العام المتضخم مقابل الهدوء السياسي. ينعكس ذلك، على سبيل المثال، في عبارات الحنين إلى أيام حافظ الأسد واستذكار تعهده بأن أي تقصيرٍ في توفير الخبز الرخيص المدعوم من الحكومة هو ”خطٌ أحمر“.

تدريجياً، بدأ السوريون ينجذبون إلى بدائل حكم نظام الأسد، ولا أتحدث فقط عن مزارعي الحنطة الذين يُفضلون بيع منتجاتهم لجهات فاعلة أخرى غير الدولة. يتجلى تضاؤل صفوف مؤيدي النظام والمحايدين في الغالب في الشكوى، عبر الإنترنت وخارجه، وفي بعض الحالات تؤدي الشكوى إلى نتائج واقعية، فبدلاً من تحدي سلطة النظام أو محاولة الهروب إلى الخارج، وهو ما يتطلب ثمناً باهضاً، يهرب بعض السوريين إلى المناطق الخاضعة لسيطرة قوات سوريا الديمقراطية (قسد). يصف عناصر من (قسد) متمركزين في الرقة ودير الزور تدفقاً متزايداً لمنشقين عن ميليشيات النظام ووحدات الجيش السوري المتمركزة في شمال شرق سوريا، ينظمون إلى صفوف (قسد)؛ بسبب ما تقدمه تلك القوات من رواتب أعلى. شهد العام الماضي أيضاً تدفقاً مستمراً للعائلات، ولاسيما تلك القادمة من دير الزور الخاضعة لسيطرة النظام، وقد انتقلت إلى مناطق تحت سيطرة (قسد)؛ بسبب الظروف المعيشية الأفضل. ”الفرقة الرابعة [في الجيش السوري] تترك الناس بلا شيء“. يقول عبود، صحفيٌ يعيش في دير الزور الخاضعة لسيطرة النظام، ”إنهم يأخذون حصةً من كل شيء“، مشيراً إلى ”الضرائب“ التي تفرضها الفرقة بقيادة شقيق الأسد، على السكان. يضيفُ عبود ”في الجزيرة [مناطق تحت سيطرة قسد]، توجد وظائف“. أولئك الذين غادروا دير الزور ليسوا

من مؤيدي المعارضة ولكن معظمهم من موظفي الدولة السورية الذين ظلوا مغلولين بالنظام خلال الحرب ولم يعد يمكنهم العيش على ما يستلمونه من رواتب ببساطة.

مع تفكك العقد الاجتماعي الذي يؤمن دعم النظام والرضوخ له، يعتمد الأسد أكثر فأكثر على العنف للبقاء في السلطة. على الرغم من الصعوبات غير المسبوقة التي مرت بها سوريا، تم توثيق احتجاج صغير واحد فقط في المناطق الخاضعة لسيطرة النظام، وقد عبّر هذا الاحتجاج عن ولاءٍ للنظام، بيد أنه طالب بالخُبز لا غير. يُجمع عشرات الأشخاص المقيمين في المناطق التي يسيطر عليها النظام، والذين تمت مقابلتهم إعلامياً، إجماعاً ساحقاً على أنه من غير المرجح حدوث أعمال شغب في سوريا؛ فالسكان مرعوبون جداً، وعاجزون، ولا يرون أي جدوى في الاحتجاج. أوضح فاروق –مواطنٌ من شرق درعا حيث يمتنع النظام عن تنفيذ اعتقالاتٍ بسبب اتفاقٍ مُسبقٍ برعاية روسيا– ”في بلدتنا توجد مجموعتان على تطبيق (الواتس آب)، حيث يعبر الناس عن إحباطهم... بيد أن المطلوبين للنظام، أولئك الثوار السابقين، هم فقط من يجرؤون على شتم الأسد، فالخوف من الاعتقال أو القتل أقوى من الخوف من الجوع“.

بالنسبة لبعضهم، فإن الخضوع والتحمل بصمت لموقفٍ لا يُطاق هو كل ما يمكنهم فعله. تقول مريم، مواطنة تعيش في جرمانا، ”لقد فقد الناس الأمل في أن تغير الشكاوى أي شيء، فبدأوا يتأقلمون مع الوضع“.

يخشى النظامُ اندلاع احتجاجات، حتى تلك التي تُطالب بالخبز لا غير؛ مما يضمن عدم وصول أي خبرٍ عن اضطراباتٍ في المناطق الخاضعة لسيطرة النظام إلى السكان عبر وسائل الإعلام التي تديرها الدولة أو عبر الإنترنت. ولكن حتى لو اندلعت احتجاجات، يمكن للأسد أن يعتمد على عملاء المخابرات خاصته لقمعها – ففي نهاية المطاف، قادة وجنود الشرطة السرية يستثمرون بعمقٍ في نظامٍ يوفر لهم فرصاً للثراءِ غير المشروع على حساب الغالبية العظمى من السكان السوريين. جميل –أب لطفلين يعيش في منطقة الحولة شمال حمص– الخوف الذي يشل حركة السوريين قائلاً: ”يصمت الناس ويقبلون الظلم. يرون أطفالهم نصب أعينهم يعانون الجوع، وهم عاجزون عن فعل شيء“. وفي إشارة إلى الذعر الذي استشرى في سوريا بعد أن استولى حافظ الأسد، والد بشار الأسد، على السلطة بعد انقلاب عام 1970، قال ”إن عمرَ هذه القبضة المحكمة المتمثلة بالمخابرات قد تجاوز الخمسين عاماً، وكذلك كَبُر الخوف منها. لقد ورثناها من عهد

الأب إلى عهد الابن"، مُضيفاً "أن سوريا تشهد ضموراً في مفاصل الدولة، بيدَ أن النظام مازال قائماً. فلا توجد دولة ولا مؤسسات. بل إن القبضة الأمنية المشددة من تُبقي نظام الأسد مُعتلياً كرسي السلطة. هذه القبضة هي الكابوس الذي يطارد السوريين".

في الأشهر الأولى من الانتفاضة السورية، خطّ رجال الميليشيات الموالية للنظام عبارة "اركعْ أو مُت جوعاً" على جدران البلدات المنتفضة التي وضعوها تحت الحصار أثناء قصفها. لطالما كان النظام وأتباعه واضحين بشأن ما ينطوي عليه العيش تحت حكم الأسد: الانصياع بإذعان تحت أقدام السلطة. بينما شارك ملايين السوريين في الاحتجاجات السلمية المناهضة للنظام في عام 2011، قرر ملايين آخرون عدم المشاركة، بسبب الخوف غالباً أو الرغبة في الاستقرار. الآن، بعد عقد من الزمان، وسط تفكك الدولة، يُكافح أولئك الذين أجبروا على الركوع لشراء ما يكفي من الخبز لدرء الجوع. وفي الوقت نفسه، فإن أولئك الذين أجبروا السكان على الركوع لا يرون هذه الأزمة إلا فرصة لتحقيق الربح.

* تم تغيير جميع أسماء المواطنين السوريين المذكورين في هذا المقال لحمايتهم من الأذى.

المصدر: معهد نيو لاينز للشؤون السياسية والاستراتيجية

https://newlinesinstitute.org/syria/kneel-and-starve-under-the-watchful-eye-of-the-secret-police-syrians-go-hungry/